

إزدواجية اللغة وأثرها في المجتمع والأسرة

د. عثمان بخيت جبارة - جامعة الفاشر

ظاهرة الازدواجية اللغوية في الحياة العربية، وهي حقيقة وجود الظاهرة "لغات لغة العرب " ومن ثم وجود لغة أدبية مشتركة (الشعر الجاهلي) ومن ثم نزول القرآن الكريم بهذه اللغة المشتركة، التي أصبحت نموذجاً يحتذى للثقافة والعلم والأدب، ثم تفاعل العربية ولغات الشعوب الإسلامية الجديدة، مما أثر في تنوع مستويات الاستعمال الذي أفضى إلى شيء من اللحن في اللغة، فهبت الحاجة العقدية والحضارية الي تعليم اللغة النموذجية، فنشأ لحماية اللغة من جراء ذلك علم النحو وأصبحت الحاجة إليه أكثر إلحاحاً من ذي قبل، وأن اكتساب اللغة الفصيحة في هذا العصر بمنأى عن النحو ضرب من المثالية ولذا يتطرق البحث إلى بيان الفرق بين اكتساب اللغة واكتساب النحو. ثم تأثر المجتمع والأسرة في الازدواج اللغوي بين الفصحى والعامية.

Abstract:

The research examines the phenomena of linguistic diglossia in Arabic language. There is a common ground between literary language (ancient poetry) and the language of Quran language that become a model for culture, knowledge and literature. There is interaction between Arabic language and Islamic peoples that has direct impact on usage and variety and lead to poor language. There is need for syntax and grammar as far as language acquisition is concerned.

The research examines the difference between acquiring language and syntax. Moreover, the research discusses the diglossia and the problem of learning syntax will be highlighted by the research. The paper will discuss the early conflict between cQmmon language and Arabic dialects. The impact of community, family will be examined based on diglossia between colloquial and standard language

ازدواجية اللغة وأثرها في المجتمع والأسرة:

تعد ظاهرة الازدواجية في اللغة من أهم المشكلات التي تواجه المجتمع والأسرة في الوطن العربي من النواحي الاجتماعية والنفسية والتربوية ولطبيعة هذا الموضوع المهم من الناحيتين القومية والسياسية من جهة أخرى، فإنه لم يلق عناية موضوعية كافية، أو بحثاً مستفيضاً في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، خاصة التطورية والمقارنة منها. ويبقى الكثير مما كتب ردود فعل آنية أملت انتمايات ومصالح مختلفة أكثر مما أمله البحث الموضوعي الجاد في العالم العربي. وكان الصراع واضحاً بين الأدباء والنحاة في العصور المتعاقبة. وقضية الازدواجية قد عرفها العلماء الغربيين بكلمة "ازدواجية" ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Diglossia) يعتقد أن أول من تحدث عن هذه الظاهرة هو اللغوي الألماني كرومباخر (Krubacher 1902)

في كتاب له صدر عام 1902، تطرق فيه إلى طبيعة هذه الظاهرة وأصولها وتطورها، وأشار بشكل خاص إلى اللغتين اليونانية والعربية، وخلص إلى نتائج تفسر كثيراً من التطورات المتأخرة لبعض الدعوات في العالم العربي، إذا اقترح على اليونانيين ترك "إزاحتهم الشرقية" واللاحق بالعالم الغربي. والدعوات في العالم العربي ليتوقع فيرجسون أن يكون هناك تقدم بطيء نحو تطور مجموعة من الأنماط اللغوية يركز كل منها على إحدى العاميات مع مزيج من مفردات الفصحى. . وهناك بناء على ثلاثة أنماط رئيسة. . أولها العربية المغربية، وترتكز على عامية الرباط أو تونس. وثانيها المصرية، وترتكز على عامية القاهرة، والثالثة ما

أسماء المشرقية، وترتكز على عامية بغداد ويضيف فيرجسون مكملاً توقعاته أنه بناء على تطورات سياسية واقتصادية غير متوقعة، فلربما نشأ نمط جديد للعربية في سوريا، مرتكزاً على عامية دمشق، وآخر سوداني يرتكز على عامية أم درمان أو الخرطوم، أو أنماط أخرى على حد قوله. ولعل من أفضل البحوث في هذا الموضوع كتاب، د. نفوسة زكريا-رحمها الله - "تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر".

ولذا فإن النحو قد وضع في بداية أمره لتقويم السنة المتحدثين بالعربية من العرب الذين دخل اللحن في كلامهم من جراء اختلاطهم بغيرهم من الذين ازدحم المجتمع العربي بهم في صدر الإسلام أولاً، وثانياً لتعليم هؤلاء الوافدين أصول النطق بالعربية سليمة ولا سيما أنها أصبحت لغة دين وفكر يحرص عليه الجميع. وحيث الازدواجية هي استخدام فرد جماعة مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة أو التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة في استعمال اللغوي(1)

ويبدو أن هذه ظاهرة موجودة في معظم لغات البشر، أو كما يقول كمال يوسف الحاج "فهي كائنة في كل لغة لا محالة" (2) بيد أنها قد أخذت في العربية بعداً يختلف عنه في أية لغة أخرى قديمة أو حديثة - تقريباً - وذلك لسببين رئيسيين هما السبب الديني أولاً وطبيعة تركيب اللغة العربية في مفرداتها وجملها وفي استخدامها الحركات الإعرابية ، للإبانة والإعراب عن المعني ثانياً. فالعربية هي اللغة الأساسية والوحيدة في ادا شعائر الإسلام والتعبد فيه، وفي قراءة القرآن الكريم وهي الوحيدة - فيما أعلم - التي تحمل سمة الحركات الإعرابية لنقل المعاني باتساع واضح،

وهي أيضا جاءت من قاعدة متسعة وعريضة من لهجات القبائل التي كانت تتفق وتفتقر في كيفية نطق أصواتها وفي تكوين مفرداتها الصرفية، وفي توظيف الحركات الإعرابية فيها وكذلك في الأبعاد الدلالية لمعجمها، غير أن قسماً كبيراً من نقاط الافتراق قد سقطت من هذه اللهجات مع سقوط سنوات الزمن التي أبعدتنا عن قبائلنا، كما دون في كتب قديمة وصلت إلينا حكم عليها بالشذوذ أو الندرة أو القلة وفي الحالات كلها تحفظ ولا يقاس عليها، حتي وإن كثرت في استعمال هذه القبائل أو كما يقول أبو علي الفارسي: "هو كثير في كلامهم ولكنه شاذ يحفظ ولا يقاس عليه" وبمرور الزمن تكونت في المجتمعات العربية لهجات عامية يتكئ بعضها على لهجات قبائل قديمة ليست من لهجات الاحتجاج أصلاً ويعتمد بعضها على بعض لهجات قبائل إحتجاج ألا أنها حرفت لتلاءم حاجة مستعمليها، ويتقدم الزمن يزداد التأثير بين اللهجات العامية، وهي التي تجري على السنة المتحدثين بالعربية وقت يومهم، وفي مختلف مجالات حياتهم وتلك التي أخذت معايير الفصحى بيد أنها قليلة الاستعمال، قليلة التداول حتى في قاعات الدرس في الجامعات والمدارس فضلاً عن الندوات العلمية(3).

ومن الطبيعي أن ينشأ الصراع بين أنصار الفئتين، فتمحورت آراء العلماء في هذين المحورين:

الأول: أن العاميات امتداد عن الفصحى نشأت بتأثير من اتصال الشعوب العربية بشعوب أخرى، نشر الدين الله في الأرض، فاختلطت العربية بلغات هذه الشعوب.

والثاني: أن العاميات بالمفهوم الواسع - موجودة قبل وجود الفصحى، وما الفصحى إلا تطور اقتضاه الواقع اللغوي بعد نزول القرآن الكريم ممهداً له بالأسواق الأدبية في ما يسميه العلماء بـ "اللغة المشتركة (4)" وعليه فإنهم يرون أن تأخذ هذه اللغة المشتركة من العاميات التي هي بمثابة القاعدة التي يقوم عليها صرحها، وفي ذلك - عند هذا الفريق - دليل الرقي في الحضارة الإنسانية ورمز للتقدم بها في أهم عنصر من عناصر حفظها، بيد أن فريقاً آخر أخذ ينظر إلى العاميات نتاج مرحلة من مراحل الانحطاط، وأنه تمثل الخطر الحقيقي على العربية، بل على الفكر. ووقف فريق آخر موقفاً وسطاً، فأخذ يدعو إلى الأخذ من العامية والأخذ من الفصحى ليتم الاقتراب بينهما، وفي النهاية يكون توحيدها (5)، هذا بالإضافة إلى الدعوات السريعة التي طالب أصحابها بتفصيح العامية لتقترب من الفصحى، أو النزول بالفصحى لتقترب من العامية، أو اشتقاق لغة ثالثة نادى بها كتاب المسرحيات كتوفيق الحكيم ويوسف السباعي وغيرهما يسونها "الفصحمية (6)"، ومنهم من أخذ بمبدأ "دع لغتك تجري وشأنها، ثم خذها وصفها في كل مرحلة كما هي، في نتاج حضارة تلك المرحلة ووسيلة التفاهم بين المتحدثين بها في ذلك الوقت " وهذا مذهب بعض اللغويين الغربيين، وكل رأي من هذه الآراء وجد له أنصار يدافعون عنه، ويلتمسون طرق الإصلاح اللغوي في منهج يتسق معه، يسخرون الجوانب الدينية والقومية والأدبية والفنية، والعلمية التقنية أحياناً، للإقناع بما يقولون، وخلف إدعاء كل فريق هدف وغاية يسعى إليها إما قاصداً هادفاً، أو مردداً ما يسمع عن غير ما وعي ولا بصيرة.

ولعل من أفضل البحوث في هذا الموضوع كتاب د. نفوسة زكريا -
رحمها الله -

"تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر(7)" ففيه ما يغني عن الإعادة والتكرار ويستحسن أن لا نتجاهل وجود هذه المشكلة، ولا أن نعد ما قاله بعض الكتاب والمفكرين المعاصرين من أنه لا حقيقة لها على أرض الواقع، وأما مشكلة مختلفة مزعومة ستحسر تلقائياً. وأن لا يأخذنا اليأس أيضاً فندعي أن اللغة الفصحى انتصرت على العامية، ودمرتها إلى غير رجعة بعد صراع طويل(8) ولا أن ندعي أن الفصحى لم يعد لها وجود إلا في بطون كتب التراث، حيث تمثل مرحلة تاريخية انقرضت بانقراض عصرها.

إن المشكلة موجودة في انتشار ذلك الجهل وقلة التعليم في المجتمعات العربية، وحفز بعض الكتاب الغربيين الكتاب العرب للكتابة بالعامية، ويشجعون الدعوة إليها، متخذين من مصر نقطة انطلاق ما لبثت أن امتدت إلى المغرب العربي وبلاد الشام والعراق وإلى حد ما الجزيرة العربية المصفاة التي يجب عليهم أن يحافظوا عليها وان يتوقوا لإتقانها وأن يتلذذوا بها هي لغة القرآن الكريم التي أصبحت لغة تراث وحضارة إسلامية(9).

وما زالت المشكلة موجودة في مختلف أنحاء العالم العربي يفصحها التحصيل اللغوي للطالب في مراحل التعليم المتوالية، فسيكون لهذا البحث وقفة مع آثار هذه المشكلة على الطالب الجامعي، إذ بدت نتائجها فيه واضحة اتكأت على عناصر هامة في المجتمع وفي الأسرة وفي المؤسسة

التعليمية ووجودها - فيما أرى - ليس حاداً يستحيل إصلاحه، إذ إن أغلب الألفاظ العامية التي تستخدم في حياتنا المعاصرة ذات صلة وجذور في الفصحى جرى عليها تغيير في أصواتها بقلب أو إبدال أو حذف أو توليد اشتقاقي في صيغة صرفية أو تقريب لفظ، جاءت بحكم الحاجة العملية أو من واقع التأثير والتأثير بالاحتكاك الواسع بين أبناء العربية وغيرهم احتكاكاً مباشراً أو عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة بخاصة والمقروءة بعامة.

ولن يذهب بنا التشاؤم أو السخط من انتشار العامية مذهباً بعيداً فقد كانت هذه المشكلة موجودة عند العرب في القرون الأولى بعد صدر الإسلام نشأ عنها ما أسماه العلماء القدماء "لحن العامة" وألفت حوله كتب حدث ببعض المحدثين الاقتداء بمناهجها فانصرفوا لدراسة العاميات، بيد أن جلهم - فيما أعتقد - دفعهم حماس خدمة العربية الفصحى، وتيسيرها للأجيال، فأصدر محمد الدسوقي

سنة 1913م "تهذيب الألفاظ العامية" وتبعه د. أحمد عيسى سنة 1939م فأصدر "الحكم في أصول الكلمات العامية" وتبعهما في هذا المنحى من التأليف نفر كثير (10) وحاول بعض الباحثين الاحتياط على المشكلة باستعمال مصطلحات غريبة كما جاء في تصنيف د. السعيد بدوى مستويات العربية بـ: فصحي التراث وفصحى العصر، وعامية المثقفين، وعامية المتنورين، وعامية الأميين (11)، غير أن المشكلة ظلت قائمة وأرجو أن لا أكون مغالياً إذا قلت: بأن ليس هناك من يتكلم العربية الفصحى في حياته كلها في مجالات عمله يومه، وإذا وجد من يحسن من

تكلمها في بعض المناسبات سيجد إنكاراً إن لم يجد تهكماً وسخرية، ظناً منهم أنه يتشدد باللغة أو يتفهم بها.

وأصبحت المشكلة هذه قائمة يعاني منها الطالب في قاعات الدرس وقد يحجم عن المشاركة في المناقشة أو الإجابة في قاعة الدرس عند سؤال يعرف إجابته معرفة يقينية خشية الوقوع في الخطأ اللغوي وليس خطأ المعلومات. ولا بد هنا أن نفرق بين اكتساب اللغة واكتساب النحو:

فاكتساب اللغة عملية ملازمة لعملية التنشئة الاجتماعية، ولذا فمن البديهي أن الطفل يكتسب في مرحلة نشأته اللهجة التي تتكلمها الأسرة، ومن ثم يتعلم اللغة العربية القياسية وهي مرحلة تالية للهجة بعد تمكن نظامها في ذاكرة الطفل اللغوية، وينشأ من ذلك صراع بين نظام اللغة ونظام اللهجة، ومن هنا تأتي ازدواجية اللغة (فصيحة، عامية).

إن تصنيف التأثير والتأثير بين الطالب والمجتمع بعامة وأسرته بخاصة يندرج تحت مستويات البحث اللغوي. المستوى الصوتي، المستوى الصرفي، المستوى التركيبي.

أولاً: المستوى الصوتي:

تأثرت الفصحى في السنة الناطقين بها في بعض أصوات الحروف ينطقها المجتمع وفيه الأسرة بكيفية معينة، فيحملها الطفل شاباً جامعياً ينطقها على غير صورتها الفصيحة، وقد يعي اختلافها عن الفصحى، بيد أن اللسان تعود على نطقها بتلك الطريقة وفي إيراد بعض أصوات الحروف التي تقع فيها مخالفة لصوته "نطقاً ورسمًا" يستبين الفرق فيه بين اللغة واللهجة « ولن يتعرض هذا البحث للحديث عن صفات أصوات الحروف

من تفخيم وترقيق وهمس وجهر. . فالبحث فيها يحتاج إلى رسوم مخبريه.

ث. الثاء المثلثة انقلبت في بعض العاميات إلى ت "المثناة" كما في قولهم: ثاني، ثلاثة، تغلب.

ج: "الجيم، لقد ساد في العاميات المجتمعات العربية في هذا العصر استخدام الجيم الشامية حتى أصبح من العسير جداً على الطالب والمعلم في المدرسة والجامعة التخلص منها، وهي كما نص سيبويه "من الحروف التي لا تستحب في الشعر ولا يقرأ بها. في القرآن الكريم"

ذ. "الذال" هذا الحرف اختفي في بعض العاميات تماماً ولم يعد له وجود في حديثهم وكلماء ورد نص من النصوص تجده تحول إلى "زاي" حتى إنك لتجده في بعض الكتابات وعلى ألسنة المتحدثين "زايا" هزاً، ذلك، زهب. ومنهم من ينطق آيات القرآن على هذه الشاكلة "إن هزان لساحران" "إن الزين" "يزهبون"

ر: "الراء" الأصل في هذا الصوت أن تقل ضربات اللسان فيه على سقف الحنك، وتسمع في بعض المجتمعات العربية وبعض الطلبة المنتمين لتلك الجماعات ضربات قد تزيد في بعض الأحيان على ثلاث عشرة مرة. هذا فضلاً عن الترقيق والتفخيم باضطراب واضح لا يخفى على أحد

ض: "الضاد" وهو الصوت الذي سميت العربية به، ولن يتحدث البحث عن اختلاف العلماء في مخرج هذا الصوت أو صفته فإن الآراء فيه قد تزيد على خمسة(12)، ووظيفتها إظهار آثار العاميات في هذا الحرف وتحوله إلى صوت الظاء، حتى في قراءة القرآن الكريم عند عدد ليس

بالقليل من الطلاب ويكفي أن يستمع إلى كيفية قراءة " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " ولعل لهذا الصوت خلافاً في شبه الجزيرة العربية.
ط: "الطاء" تغير صوت هذا الحرف تأثيراً بالعاميات وعلى وجه الخصوص في بلاد الشام ومصر فأنحرف إلى صوت التاء هرباً من ثقل التفخيم. ميلاً نحو الترقيق ؟ الطلاب: التلاب، طاب مساؤكم، تاب مساؤكم.

ظ: "الظاء" وتنطق قريبة من الزاي " الظهر "
الكلب. قاف " هذا الحرف من أكثر الحروف التي أصابها تغيير في أكثر من إتجاه حيناً بغير قال: غال وأخرى قريبة من الكاف خفيفة: كال. وثالثة لا يخرج صوتها كتابة وإنما نطقاً - القلب. الكلب. ولعل من التزيد في القول أن يستعرض البحث الحديث في رد النطق بهذا الصوت (CH) بين الكاف والشين إلى أصولها القبلية في الاستعمال العربي. فهو أمر معلوم وموجود في كثير من كتب التراث (13)، ولكن الذي يعني هو أنه موجود في العاميات المعاصرة إلا أن الخلط فيه كاد يكون أقل الأصوات تأثيراً على الطالب الجامعي، وربما كان لرسم الحرف (ك) وعدم وجود رمز له في الصيغة الثانية (CH) في قائمة الهجاء العربي ما ساعد في تقليل تأثيره. ومرة رابعة تتحول إلى صوت -همزة واضحة وهذا التحول نادر لا يوجد له أساس في العربية التراث مع اختلاف قبائل العرب الاحتجاجية في لهجاتهم - حسب ما وصلت إليه من دراسات - فقد أصبحت في العامية المصرية والعامية الشامية على هذا النحو مع اختلاف في نطق الهمزة تفخيماً وترقيقاً:

قال - آل

قلم - ألم

قوي - أوي

السوق - السوء

الأرزاق - الأرزاء

الفقر - الفأر

المستوى الصرفي:

لما كان بناء الكلمة في العربية يعتمد على الاشتقاق كثيراً، فإن التغير في المستوى الصرفي بطئ وقليل، وربما كان التغير هذا يبدو جله في محاولة العامية إخضاع ما يدخل إليها من ألفاظ أجنبية نتيجة الاحتكاك الحضاري بالمخترعات الحديثة، أو باحتكاك بعض شعوب المجتمع العربي وبخاصة في شبه الجزيرة العربية بالعمالة الوافدة من مختلف الحضارات واللغات، فامتد هذا إلى الطالب في قاعات الدرس، فتسمع أحيانا كثيرة (تلفنتك) أو تلفن لي من يجري؟ ويقع معظمها في جموع التكسير والسالم واسم الجمع والمصدر، وبعضها في إضافة حرف الباء على الفعل مثل (بينتظر بيلعب. . بنكتب. . الخ، ولعل مما هو لافت للانتباه في شبه الجزيرة العربية انتشار استخدام صيغة حالة الرفع في الأفعال الخمسة من غير مراعاة سبقها بأداة جزم فتنتقل هذه معهم إلى قاعة الدرس الجامعي.

فيكتب بعض الطلبة:

من دون أن ترونه هل تسخروا منه

فهم لم يروونه أبداً أنتم تستطيعون أن تقدمون لأمتكم كل الخير
المستوى التركيبي:

حين شاع اللحن في السنة العرب ومن باب أولى غير العرب عند النطق
بلغة كتاب الله العزيز دفع ذلك النحاة يتقدمهم الخليل بن أحمد الفراهيدي
لوضع "النظرية العامل" وهي من النظريات المهمة في علم النحو حيث
كان جل الحن في التراكيب اللغوية - على مستوى الجملة - لاسيما
الحركة الإعرابية مما أفضى إلى خطأ في المعنى، وهذا ما شغل النحويين
ودفعهم لأن يتجهوا للحركة الإعرابية.

حتى في تقسيمهم النحو: أقسام الكلم، المعرب والمبني، المرفوعات،
المنصوبات، المجزورات، المجزومات، التوابع. تبعاً للعامل حتى يتبين
عندهم سبب الحركة الإعرابية على أواخر الكلم في التركيب الجملي.
فناقشوا المعمول والعامل وحذف العامل أو ذكره، والعامل كونه ملفوظاً
أو معنوياً.

وهذا البحث لن يتعرض لتفصيل القول في "نظرية العامل"، المعارضين
لها أو المؤيدين لها، ولن نتجه كذلك لآراء بعض علماء النحو القدماء
والمحدثين في الحركات الإعرابية وتفسيرها صوتياً أو دلالياً، ولعل في
إيراد رأي محمد بن المستنير "قطرب" والزجاجي ما يبين تعارض
الرأيين(14).

إذ يقول قطرب: "إنما أعربت (العرب) كلامها، لأن الاسم في حال الوقف
يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه
الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطنون عند الإدراج، فلما وصلوا

وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معقّباً للإسكان، ليعتدل الكلام(15).
ويقول في موضع آخر: " ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت، ولا بين أربعة أحرف متحركة، لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون، وتذهب المهلة في كلامهم، فجعلوا الحركة عقب الإسكان(16).

و يقول أيضاً رداً على سؤال: فلماذا لم يلزموا حركة واحدة ؟
قال: لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع في الحركات، وألا يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة(17) ويقول الزجاجي في إجابة على سؤال عن الحاجة إلى الحركة الإعرابية والداعي إليها: "إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافاً إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب

فيها تنبئ عن هذه المعاني، فقالوا: ضرب زيد عمراً فدلوا برفع زيد على أن الفعل له، وننصب "عمراً" على أن الفعل واقع به (18).

وهذا الرأيان أفضيا أيضاً إلى تباين في قبول هذه النظرية ورفضها بيد أن بعض النقاط المنهجية التي أقيمت نظرية العامل عليها كان لها دور في نمو البعد واتساع الفجوة بين العاميات والفصحى في الوقت الحاضر والتي يقع أهمها في نقاط ثلاثة هي:

1- أن مادة التقعيد المعيارى هي القرآن الكريم والحديث الشريف ولغة العرب " نثراً وشعراً "

ب - أن أغلب مادة الاستشهاد الشعر، حيث اتخذته النحاة مادة للتقعيد، فكان بيت الشعر يحظى بالمقام الأول للاستشهاد مع الأخذ في الاعتبار أن اللغة الشعرية وسبك العبارة والمحافظة على الوزن قد تلجئ الشعر أن يتجاوز فيما لا يقره عليه علم النحو، ولا ينطبق أيضاً عليه ما ينطبق على النثر.

2- التحديد المكاني لجمع مادة الاستشهاد النحوي، يدرك ذلك المتتبع للنصوص التي أخذت من القبائل، فالفارابي مثلاً -على الرغم من تمجيده لغة قريش بقوله، كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس(19) إلا أنه يعود ليقول: والذين نقلت عنهم العربية وبهم اقتدي وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد. . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر القبائل"(20) وهذا يتعارض مع قول ابن جني "اللغات على اختلافها كلها حجة (21) وكذلك يجد الباحث تناقضاً في قائمة السيوطي في الاقتراح: "فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم والذين حولهم، فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاة ولا من غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصاري يقرأون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا النمر فبأنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر، لأنهم كانوا مجاورين للهند والفرس، ولا من عبد القيس، لأنهم كانوا مكان البحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أزد عمان، لمخالطتهم لمخالطتهم للهند

والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً، لمخالطتهم للهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز، لأن الذين نقلوا العربية صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (22)، والسيوطي بهذا التعميم الواضح، قد ضرب، أطناباً من الشك على الاحتجاج بلغة هؤلاء القبائل، وفيما أعتقد جازماً أن مقولته تلك تحتاج إلى دراسة فاحصة وربطها بكل مقولاته في كتابيه " المزهر، والاقتراح " وقد عاب أبو حيان على ابن مالك: " أنه كان يعني بنقل لغة لحم وخزاعة وقضاة وغيرهم، وليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن (23) بيد أن أبا حيان نفسه كان يقول: "كل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه (24) واعتمد على ذلك في استشهاده، وقبله فعل ذلك ابن جني(25) وهناك من جعل هوازن أفضل اللهجات، ومنهم من جعل ثقيفاً وأزد شنوءة أفضلها، ومنهم من جعلها لغة قریش يقول السيوطي: وقریش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصارو أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ(26)، وظلت أقوال مثل هذه تتناثر في كتب النحو وتتوالى في تقديم قوائم الأفضل في اللهجات(27). ولو جمعت لهجة كل قبيلة من القبائل العربية على حده ثم نظر في المشتركة بينها جميعاً فوضعت لها قواعد مشتركة، ثم بقي ما تنفرد به كل قبيلة في قواعد مستقلة لعرف انحدار الكلمات العامية، والأساليب التركيبية المعاصرة ومن ثم سهل ربطها بقبائل الأصل.

3- التحديد الزمني: اختلفت الآراء حول انتهاء عصر الاحتجاج عند أهل المدن، وأهل الحضر. . وإن كان أغلب النحاة يرجح أن الاحتجاج بدأ بأمري القيس (نحو 130-80 ق هـ) وانتهى ببشار بن برد (176هـ) أو بعده بقليل إبراهيم بن هرمة (90-176هـ) ولا يخفى على السامع زمن الانفصال بين لغة التطبيق النحوي ولغة الاستعمال اللغوي من ذلك الحين حتى يومنا هذا.

ومما يجدر ذكره أن اعتماد القواعد النحوية على الشاذ حيناً وعلى العبارات المصنوعة حيناً آخر أسهم إلى حد واضح في ترسيخ سلطان القواعد وإن كانت نظرية، وأبعدت اللهجات المخالفة للقواعد حتى وإن كثرت كما يقول الفارسي.

وقد كثر الخلط في المستوى التركيبي بين العاميات والفصحى أو كما سمي بالازدواجية اللغوية.

* لقد أثار المثقف الكويتي الأستاذ محمد الشارخ وهو رجل أعمال معروف ويرأس المجموعة العالمية صخر والتي أخذت على عاتقها تقديم التكنولوجيا الإلكترونية الحديثة، واستخداماتها في التعليم في اللغة العربية للمواطن العربي، في مداخلة في حوار على صفحات جريدة الشرق الأوسط عن مستقبل اللغة العربية ثلاثة نقاط رئيسية ذات علامة مباشرة بشأن الحاجة المأساة إلى سياسة لغوية. أولها أن اللغة العربية هي بدون أب أي أنه لا توجد حكومة عربية مسؤولة عن مستقبل اللغة العربية والمحافظة عليها وتوفير اللازم لنموها وانتشارها وحيويتها، على العكس من ذلك، فالدولة القطرية تشجع اللهجات المحلية مسرحاً وشعراً وإذاعة وتلفزيوناً. لأن في ذلك تميزاً عن الدول القطرية الأخرى. ثانيها أن

النخبة العربية المثقفة غير مهتمة بمستقبل العربية وغير مدركة للوهن اللغوي الراهن " تتحدث هذه النخبة لغات أجنبية، ولا يهتمها تعلم وتعليم اللغة العربية بالطرق الحديثة " كذلك فإن الفخر الذاتي بالكتابة الصحيحة، تبقي بعيداً عن تفكير هذه النخبة وتخجل هذه النخبة من الخطأ الهجائي في مراسلاتها باللغات الأجنبية لكنها لا تأبه لمثل هذا الخطأ في الكتابة العربية، وثالثها أن الجامعات العربية والشركات الدولية والمؤسسات ستعلم اللغة العربية والقرآن الكريم والفقه والشعر الجاهلي وألف ليلة وليلة لكنها لن تستثمر في تطوير الأدوات العلمية الأساسية لتعلم اللغة العربية كالمعاجم الحديثة وأدوات البحث على الشبكة العالمية العنكبوتية (الانترنت) أن هذا الاستثمار كما يقول الأستاذ الشارخ أن القائمين على مشروع صخر قد أكتشفوا بالتجربة أنها مطلوبة دولياً ليس من عرب الشتات والمستشرقين فحسب بل أكثر من ذلك بكثير أنها مطلوبة من المسلمين الذين يصلون كل يوم خمس مرات ويقرأون القرآن بالعربية. وينتهي الأستاذ الشارخ إلى القول " أنا وجدنا للعربية رباً يحميها". (طالع فهمي هويدى 1999) وهناك حل جذري للصراع بين نظام اللهجة ونظام اللغة بيد أنه حل مثالي بعيد المنال وهو أن تلتزم مؤسسات التنشئة (الأسرة - رياض الأطفال - الحضانه. . . الخ) استعمال العربية القياسية فقط في كل ممارستها الاجتماعية المتعلقة بتربية الطفل.

ولو قام كل أستاذ نحو بوضع استبانة أو تصميم أسئلة على طريقة اختيار النموذج "خطأ"، صواب " لكثير اختيار الطلاب للتراكيب العامية التي أفوها واعتقدوا بصحتها، ناهيك عن الأخطاء الصوتية والإملائية، والصرفية.

هوامش البحث:

(1) ناقش هذه الظاهرة محمد حسن عبدالعزيز: مدخل إلى اللغة ص 122، محمود حجازي، علم اللغة العربية ص 18 محمد الخولي الحياة مع لغتين ص 18، عبد رب الرسول خفاجي الازدواجية اللغوية في الوطن العربي - مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة عدد 1975/2.

(2) فلسفة اللغة ص 245

(3) انظر إميل يعقوب "فقه اللغة العربية" ص 144 أحمد علم الدين "اللهجات العربية في التراث" أحمد تيمور باشا "لهجات العرب".

(4) انظر عبدالرحمن أيوب "العربية، لهجاتها" ص 41، السعيد بدوي "مستويات العربية المعاصرة في مصر"، 60، نهاد موسى "قضية التحول إلى الفصحى" ص 64، داود عبده "أبحاث في اللغة العربية" ص 79 وما بعدها.

(5) انظر سلامة موسى "البلاغة العصرية" ص 41

(6) ينظر محمود تيمور "مشكلات اللغة العربية" ص 157، طه الراوي "فقه اللغة العربية" نهاد موسى "قضية التحول إلى الفصحى" ص 80، 1، السعيد البدوي "مستويات العربية المعاصرة" ص 67.

(7) نشر في دار الثقافة، الإسكندرية - 196.

(8) أحد المجمعين في مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة 1997 كان متفائلاً حتى أطلق هذه المقولة، مجلة المجمع 86/14.

(9) أنظر محمد الكناني "الصراع بين القديم والجديد" ص 769، محمد الحبيب بن خوجة "العربية في تونس بين الفصحى والعامية" مجلة مجمع

اللغة العربية القاهرة 69/41 مرزوق بن تنباك الفكر العامي في ونظرية الفكر العامي: ص 570، ونفوسة زكريا "تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر" ص 9-42.

(10) انظر عبدالمنعم سيد عبدالعال "معجم الألفاظ العامية المصرية ذات الأصول العربية" عبد المجيد عابدين "من أصول اللهجات العربية في السودان"، سليمان محمد سليمان "العامية في ثياب الفصحى" أحمد تيمور باشا "معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية وغيره كثير.

(11) مستويات العربية المعاصرة ص 89.

(12) انظر الفرق بين "الضاد والطاء لأبي عمرو الداني تحقيق د. أحمد كشك.

(13) انظر الكشكشة والكسكسة عند ربيعة ومضر في كتاب الاقتراح للسيوطي ص 127 - 128، وانظر أيضاً شنشة اليمن ص 128 في المصدر نفسه.

(14) نظرية العامل تناولتها أبحاث كثيرة أنظر الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي. الإنصاف للأنباري. العمل النحوي لخليل عمارة.

(15) الإيضاح في علل النحو للزجاجي ص 70.

(16) المصدر نفسه ص (71).

(17) الإيضاح في علل النحو للزجاجي ص 71.

(18) المصدر السابق (69).

(19) الاقتراح للسيوطي ص (162).

(20) الاقتراح (162).

- (21) الخصائص 10/2.
- (22) الاقتراح (162 - 163).
- (23) المصدر نفسه 3-16.
- (24) انظر الخصائص في "باب اختلاف اللغات وكلها حجة " 10/2.
- (25) الخصائص " في "باب اختلاف اللغات وكلها حجة " 10/2.
- (26) المزهر 1/ 221.
- (27) هذه النصوص مجتمعة تبين أن هناك تناقضاً واختلافاً بينها، حتى إن السيوطي يجعل لهجة قريش من أفضل اللهجات، ويرى لغة حاضرة الحجاز في الاقتراح رافضاً الاحتجاج بها (الاقتراح 163).

مجلة دراسات الأهره العدد (3) رجب 1434هـ يونيو 2013م

المراجع والمصادر:

- 1- أنيس: إبراهيم، اللغة القومية والعالمية. دار المعارف، مصر، 1970م.
- 2- ابن تنباك: مرزق بن صنيان الفصحى ونظرية الفكر العامي مطابع الفرزدق التجارية الرياض 1407هـ - 1986م.
- 2- ابن جني: سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1954
- 4- ابن خلدون: عبد الرحمن. المقدمة، لجنة البيان العربي 1957
- 5- أيوب: عبدالرحمن، العربية ولهجاتها، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1982م
- 6- بالخوجة: محمد الحبيب، العربية في تونس بين الفصحى والعامية، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة 69/41
- 7- بدوي: السعيد محمد، مستويات العربية المعاصرة في مصر، دار المعارف، مصر 1973م
- 8- بشر: كمال، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، دار الثقافة العربية، مصر، 1987م.
- 9- تيمور: أحمد، لهجات العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.
- 10- تيمور: محمود.
- أ) مشكلات اللغة العربية. مكتبة الآداب ومطبعتها. القاهرة
- ب) المعجم الكبير، تحقيق حسين نصار، الهيئة العامة للتأليف والنشر، مصر 1971

مجله دراسات الأسره العدد (3) رجب 1434هـ يونيو 2013م

- 11- الثعالبي: ابومنصور، فقه اللغة، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي 1357 هـ - 1938م.
- 12- الجاحظ: أبو عثمان بن بحر.
(أ) البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة
(ب) البيان والتبيين، دار الفكر، القاهرة 1968
(ج) الحيوان: تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر
- 13- الجندي: أحمد علم الدين، اللهجات العربية القديمة، الدار العربية للكتاب 1983م
- 14- ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان
- 15- الحاج: كمال يوسف، فلسفة اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت 1973م
- 16- حجازي: محمود فهمي، علم اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت 1973م
- 17- خفاجي، عبد رب الرسول، الازدواجية اللغوية في الوطن العربي، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة 2/1975م
- 18- الخوي: محمد علي، الحياة مع لغتين (الثنائية اللغوية)، مطابع الفرزدق، الرياض 988م
- 19- الداني: أبوعمر، الفرق بين الضاد والظاء، تحقيق أحمد كشك، طبعة أولى، مطبعة المدينة. 1410هـ / 989م

مجلد دراسات الأسرة العدد (3) رجب 1434هـ يونيو 2013م

- 20- الراجحي: عبده، اللغة وعلوم المجتمع، دار نشر الثقافة، الإسكندرية 1977م
- 21- الزجاجي: أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق، الإيضاح في علل النحو، دار العروبة - القاهرة 1378هـ.
- 22- زكريا: نفوسة، تاريخ الدعوى إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة، الإسكندرية 1964م
- 23- سليمان: محمد سليمان، العامية في ثياب الفصحى
- 24- الزمخشري: محمود بن عمر، الفائق، تحقيق علي البجاوي و"أبو الفضل إبراهيم" مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة
- 25- السيوطي: عبدالرحمن جلال الدين:
- (أ) الاقتراح في علم أصول النحو - تحقيق د. محمود فجال الطبعة الأولى 1409 هـ - 1989م، مطبعة النحر
- 26- عابدين: عبدالمجيد، من أصول اللهجات العربية في السودان: دار المعارف الجامعية، إسكندرية 1989م
- 27- عبدالنواب: رمضان، فصول في فقه العربية، دار روتابرينت للطباعة القاهرة 1977م
- 28- عبدالعال: عبدالمنعم سيد، معجم الألفاظ العامية المصرية، ذات الأصول العربية
- 29- عبدالعزيز: محمد حسن، مدخل إلى اللغة، دار النمر للطباعة 1983
- 30- عبده: داوود، أبحاث في اللغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت 1973
- 31- عمايره: خليل، العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، دار ثروت

للنشر

والتوزيع جدة

32- الكتاني: محمد، الصراع بين القديم والجديد، دار الثقافة، الدار

البيضاء، المغرب 1982م

33- الموسى: نهاد، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي

الحديث، الطبعة

الأولى، دار الفكر للنشر (1987م)

34- نهر: هادي، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، دار الغصون،

بيروت 1988م

35- يعقوب: إميل، فقه اللغة العربية، دار العلم للملايين 1987م.